

البَابُ الثَّالِثُ

فِي

الْوَلَاءِ وَالْإِبْرَاءِ

obeikandi.com

(أ) معنى الولاء والبراء وأهميته

الولاية: هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام، والكون مع المحبوبين ظاهراً وباطناً، قَالَ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].
فموالاة الكفار تعني التقرب إليهم، وإظهار الود لهم، بالأقوال والأفعال والنوايا.

والبراء: هو البعد والعداوة بعد الإعذار والإنذار.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: الولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد^(١).

وقد أوجب الله - ﷻ - علينا موالاة المؤمنين، أي: محبتهم ونصرتهم، كما أوجب علينا البراءة من المشركين، أي بغضهم وعداوتهم.
وليس في كتاب الله ﷻ - بعد التوحيد ونبد الشرك - حكم عليه من الأدلة أكثر من هذا الحكم.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٨] الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنَعُوا عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩].

فيقول - ﷻ - منكرًا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين: ﴿ أَيْبَنَعُوا عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ ﴾، ثم أخبر أن العِزَّةَ كلها له وحده لا شريك له، والمقصود التهيج على طلب العِزَّة من جانب الله تعالى، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين، الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ [التوبة: ٢٨].

(١) باختصار وتصرف من «الولاء والبراء في الإسلام» لمحمد سعيد الفحطاني [٩٠] الطبعة الثالثة.

فنهى سبحانه المؤمنين عن موالاة الكافرين ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: ومن يوال الكافرين ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: فقد برئ من الله وبرئ الله منه، وهذا تهديد شديد، ووعد أكيد، حفظاً للإسلام والتوحيد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠) ﴿لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠-٨١].

فَرَّبَ الله - ﷻ - على موالاة الكافرين سخطه والخلود في العذاب، وأخبر أن ذلك لا يحصل إلا لمن ليس بمؤمن، وأما أهل الإيثار فإنهم لا يوالونهم.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١) ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١-٥٢].

فنهى - سبحانه وتعالى - المؤمنين أن يوالوا اليهود والنصارى، وذكر أن من تولاهم فهو منهم، أي: من تولى اليهود فهو يهودي، ومن تولى النصارى فهو نصراني.

وقد روى ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين قال: قال عبد الله بن عتبة: ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر، قال: فظنناه يريد هذه الآية: ﴿يَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ الآية، وكذلك من تولى المشرك فهو مشرك، لا فرق بين أهل الكتابين وغيرهم من الكفار.

ثم أخبر تعالى أن الذين في قلوبهم مرض؛ أي: شك في الدين وشبهة، يسارعون في الكفر قائلين: ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أي: إذا أنكرت عليهم موالاة الكافرين قالوا: نخشى أن تكون الدولة لهم في المستقبل، فيتسلطوا علينا فيأخذوا أموالنا ويشردونا من

بلادنا، وهذا هو ظنُّ السوء بالله ﷻ، ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ وعسى من الله واجب، والحمد لله الذي أتى بالفتح فأصبح أهل الظنون الفاسدة على ما أسروا في أنفسهم نادمين.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

فنهى - سبحانه وتعالى - المؤمن عن موالة أبيه وأخيه اللذين هما أقرب الناس إليه، إذا كان دينهما غير الإيمان، وبين أن الذي يتولى أباه وأخاه إذا كانا كافرين فهو ظالم، فكيف من يتولى الكافرين الذين هم أعداء له، ولآبائه ولدينه، أفلا يكون هذا ظلماً؟ بلى، والله إنه لمن أظلم الظالمين.

ونزلت هذه السورة العظيمة: سورة الممتحنة، وفيها قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١) إِن يَتَقَفُوا مِنكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ١-٤] ثم قال ﷻ في خاتمة السورة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَدْسُوا مِنْ الْأَخِرَةِ كَمَا يَبِيسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

وقد ثبت في الصحاح أن هذه السورة نزلت في حاطب بن أبي بلتعة لما كتب إلى أهل مكة يخبرهم بمسير النبي ﷺ إليهم عام الفتح، فأنزل الله ﷻ هذه الآيات، وأخبر نبيه ﷺ بخبر الكتاب.

وبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في إثر المرأة التي ذهبت بالكتاب، فوجده في عقيصة رأسها، فجاء الرجل إلى رسول الله ﷺ يعتذر ويحلف أنه ما شك، ولكنه ليس له من يحمي من وراءه من أهل مكة، وأنه أراد بهذا يدًا عند قريش، واستأذن عمر بن الخطاب في قتله فقال النبي ﷺ: «وما يُدريك أن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(١).

فهذه السورة الكريمة مع سبب نزولها من الأدلة على وجوب عداوة الكفار ومقاطعتهم.

عن جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ بايعه على أن «تنصح لكل مسلم، وتبرأ من الكافر»^(٢).

وروى ابن أبي شيبة بسنده عنه ﷺ قال: «أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ»^(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله - ﷻ - بذلك، ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً».

(١) رواه البخاري (٣٠٤/٧)، المغازي، ومسلم (١٦/٥٥، ٥٦) فضائل الصحابة، وأبو داود

[٤٦٢٨]، والدارمي (٣١٣/٢)، وابن أبي شيبة [١٢٣٩٦].

(٢) رواه البخاري (١٦٦/١) الإيمان، ومسلم رقم [٥٦] الإيمان، وأبو داود [٤٩٢٤] عون [الأدب، والنسائي (١٥٢/٧) البيعة.

(٣) رواه ابن أبي شيبة [١٠٤٦٩] الإيمان والرؤيا.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: قوله: «ووالى في الله» هذا بيان لل لازم المحبة في الله، وهو الموالاة، فيه إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب، بل لابد مع ذلك من الموالاة التي هي لازم الحب، وهي النصرة والإكرام والاحترام، والكون مع المحبوب باطنًا وظاهرًا.

وقوله: «وعادى في الله» هذا بيان لل لازم البغض في الله، وهو المعاداة فيه؛ أي: إظهار العداوة بالفعل، كالجهاد لأعداء الله، والبراءة منهم، والبعد عنهم باطنًا وظاهرًا إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب، بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيِ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ (١) [الْمُتَجَنِّبِينَ: ٤].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: إنه لا يستقيم للإنسان إسلام - ولو وحد الله وترك الشرك - إلا بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغض، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ...﴾ (٢) [الْمُحَاجِّلِينَ: ٢٢].

(ب) صور من موالاة الكفار؛ منها

ما هو كفر أكفر مخرج من الملة

ومنها ما هو من قبيل المعاصي (٣)

١ - الرضا بكفر الكافرين، وعدم تكفيرهم، أو الشك في كفرهم، أو تصحيح مذاهبهم الكافرة، وهذا لا يحتاج إلى دليل؛ فالرضا بالكفر كفر أكبر.

(١) «تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد» [٤٢٢]، ط. إدارة البحوث العلمية بالرياض.

(٢) «مجموعة التوحيد» ص[١٩] ستة مواضع من السيرة، ط. دار الفكر.

(٣) هذا الفصل بتصرف واختصار من «الولاء والبراء في الإسلام» للقحطاني (٢٣١-٢٤٧).

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [النَّصْل: ٥٠].

٢- اتخذهم أعواناً وأنصاراً وأولياء، أو الدخول في دينهم.

قَالَ الْعَالِي: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ...﴾ [الْعَمَل: ٢٨].

قال ابن جرير في تفسيرها: من اتخذ الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً يواليهم على دينهم ويظاهرهم على المسلمين فليس من الله في شيء، أي: قد برئ من الله وبرئ الله منه؛ بارتداده عن دينه، ودخوله في الكفر ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً﴾، أي: إلا أن تكونوا في سلطانهم، فتخافونهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بالستكم، وتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر^(١).

وقال ابن حزم: صح أن قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [الْمَائِدَة: ٥١] إنها هو على ظاهره؛ بأنه كافر من جملة الكفار، وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: أخبر الله في هذه الآية أن متولهم هو منهم، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُواهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الْمَائِدَة: ٨١].

٣- الإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر، أو التحاكم إليهم دون كتاب الله كما قَالَ الْعَالِي: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٥١].

٤- مودة الكافرين ومحبتهم، وقد نهى الله - عَزَّ وَجَلَّ - عنها بقوله: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [الْحَجَّالَة: ٢٢]، وَقَالَ الْعَالِي: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ﴾ [الْمُحَجَّجَة: ١].

(١) «تفسير الطبري» (٣/ ٢٢٨).

٥- الركون إليهم: قَالَ تَجَالَى: ﴿وَلَا تَرْكُونُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هُود: ١١٣].

قال القرطبي: الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به^(١).

٦- مداھنتهم ومجاملتهم على حساب الدين، قَالَ تَجَالَى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [الْقَمَل: ٩].

٧- اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، قَالَ تَجَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الْعَبْر: ١١٨].

وبطانة الرجل: خاصته، تشبيهاً ببطانة الثوب التي تلي بطنه، لأنهم يستبطنون أمره، ويطلعون منه على ما لا يطلع عليه غيرهم، وقد بين الله العلة في النهي عن مباطنتهم فقال: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد، ثم إنهم يودون ما يشق عليكم من الضرر والهلاك.

والعداوة التي ظهرت منهم شتم المسلمين، والوقعة فيهم، وقيل: باطلاع المشركين على أسرار المسلمين، وفي سنن أبي داود قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرجل على دين خليله، فليُنظر أحدكم من يخال»^(٢).

٨- طاعتهم فيما يأمرون به، قال تعالى ناهياً عن ذلك: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [الْعَبْر: ١٤٩].

وقَالَ تَجَالَى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجِدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الْأَنْعَام: ١٢١].

(١) «تفسير القرطبي» (٩/ ١٠٨).

(٢) «تفسير البغوي» (١/ ٤٠٩)، و«ابن كثير» (٢/ ٨٩)، والحديث سيأتي تخريجه في الباب المقبل.

قال ابن كثير في تفسيرها: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿ اُنْخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] (١).

٩- مجالستهم والدخول عليهم وقت استهزائهم بآيات الله، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [النساء: ١٤٠].

١٠- توليتهم أمراً من أمور المسلمين كالإمارة، والكتابة، وغيرها، فتوليتهم نوع من توليتهم، والولاية إعزاز، فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً، والولاية صلة، فلا تجمع معادة الكافر.

١١- استئمانهم وقد خَوَّنهم الله، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَكِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧٥].

١٢- التشبه بهم والتزيي بزيهم.

١٣- البشاشة لهم، والطلاقة، وانسراح الصدر لهم، وتقريبهم.

١٤- معاونتهم على ظلمهم، ونصرتهم، فقد ضرب القرآن مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط، حيث كانتا متعاونتين مع الكافرين راضيتين بكفرهم.

١٥- مناصحتهم والثناء عليهم، ونشر فضائلهم، ووصفهم بالتقدم والحضارة والرقى، ووسم الإسلام بالرجعية والجمود والتأخر.

١٦- تعظيمهم والثناء عليهم، وإطلاق الألقاب الحسنة عليهم، كالسادة والحكماء.

١٧- السكنى معهم في ديارهم، وتكثير سوادهم، قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» (٢).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٢٢).

(٢) رواه أبو داود [٢٧٧٠ عون] الجهاد، والترمذي [١٦٠٥] السير، وله شاهد صحيح الإسناد بلفظ: «أنا بريء من كل مسلم يعيش بين ظهرائي المشركين»، وقال العلقمي في «الكوكب المنير»:

١٨- التآمر معهم، وتنفيذ مخططاتهم، والدخول في أحلافهم وتنظياتهم، والتجسس من أجلهم.

١٩- الهروب من دار الإسلام إلى دار الحرب، بُغْضًا للمسلمين، وَحُبًّا للكافرين.

٢٠- الانخراط في الأحزاب العلمانية، أو الإلحادية؛ كالشيوعية، والاشتراكية والقومية، وبذل الولاء والحب والنصرة لها.

(ج) مواقف إيمانية في الولاء والبراء

١- موقف إبراهيم إمام الحنفاء وأبي الأنبياء - صلى الله على نبينا وعليه وسلم - وبراءته من الشرك والمشركين؛

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: لا تصح الموالاتة إلا بالمعاداة، كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحيين أنه قال لقومه: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ (٧٥) أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿ الشَّعَرَةُ: ٧٥-٧٧ ﴾؛ فلم تصح لخليل الله هذه الموالاتة والخللة إلا بتحقيق هذه المعاداة، فإنه لا ولاء إلا لله، ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه، قَالَ النَّبِيُّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ (٣٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿ (الْأَنْعَامُ: ٢٦-٢٨).

أي: جعل هذه الموالاتة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية يتوارثها الأنبياء وأتباعهم، بعضهم عن بعض، وهي كلمة: لا إله إلا الله، وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة^(١).

واستحق إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يجعله الله - عَزَّ وَجَلَّ - أسوة في موالاتة الله عَزَّ وَجَلَّ والبراءة من الشرك والمشركين، فقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ

= «حديث سمرة إسنادة حسن، وفيه وجوب الهجرة على من قدر عليها ولم يقدر على إظهار الدين،

أسيرًا كان أو حربياً؛ فإن المسلم مقهور مهان بينهم، وإن انكفوا عنه؛ فإنه لا يأمن بعد ذلك أن يؤذوه

أو يفتنوه عن دينه، وحق على المسلم أن يكون مستظهِراً بأهل دينه» عون المعبود (٧/ ٤٧٩).

(١) «الجواب الكافي» (٣٠٠-٣٠١) ط. ابن الجوزي.

إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ۖ ﴿٤٠﴾ [الْمُحَجَّجَاتُ: ٤٠].

فجعل الله ﷻ قدوة للمؤمنين، إلا في قوله لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ وبلغ من براءته من الشرك والمشركون أنه فارقهم ببدنه، كما خالفهم بعقيدته وقلبه فقال: ﴿وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا نَدْعُوكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٨: ٤٨-٤٩﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا نَدْعُوكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أي: أجتنبكم، وأتبرأ منكم، ومن آهنتكم التي تعبدونها من دون الله ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه عَلَيْهِ السَّلَامُ سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ يقول تعالى: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منه، وهب له إسحاق ويعقوب يعني ابنه وابن إسحاق كما في الآية الأخرى ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ ﴿١﴾ [الأنبياء: ٧٢].

وفي الآية الكريمة بركة البراءة من المشركين، والفرار بالدين، فعوّضه الله ﷻ بدلاً من هذه الخلطة السيئة ولده إسحاق، وولد ولده يعقوب، وأنعم الله عليهما كذلك بالنبوة، وإنما يخاطب بهذه الآية الكريمة، وآية الكهف في قصة أصحاب الكهف الذين يظلمون أنفسهم بالحياة في ديار المشركين، فلا تكاد تقع أعينهم إلا على الكفر والإباحية والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١٧: ٩٧-٩٩﴾.

٢- موقف الفتية في قصة أصحاب الكهف وبراءتهم من الآلهة الباطلة وعابديها:

قَالَ تَجَالَى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۝١٤ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝١٥ وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدَأُ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرِّفَقًا ۝﴾ [الكهف: ١٣-١٦].

قال الخطابي: وكانوا قومًا كرهوا المقام بين ظهري أهل الباطل، ففروا من فتنة الكفر وعبادة الأوثان، فصرف الله تعالى عنهم شرهم، ودفع عنهم بأسهم، ورفع في الصالحين ذكرهم^(١).

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم ربهم هدى، قالوا: إن ربهم هو رب السموات والأرض، وأنهم لن يدعوا من دونه إلهًا، وأنهم لو فعلوا ذلك قالوا شططًا، أي: قولًا ذا شطط^(٢).

وقال الرازي: اعلم أن المراد أنه قال بعضهم لبعض: ﴿وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ﴾ واعتزلتم الشيء الذي يعبدونه إلا الله، فإنكم لم تعتزلوا عبادة الله ﴿فَأَوْدَأُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ ومعناه: اذهبوا إليه واجعلوه مأواكم ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: يبسطها عليكم ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرِّفَقًا﴾ من الارتفاق^(٣).

٣- أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وولَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: عن عائشة قالت: لما اجتمع أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانوا ثمانية وثلاثون رجلًا، ألح أبو بكر على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الظهور، فقال:

(١) «العزلة» للخطابي [١٦]، ط. مكتبة الزهراء.

(٢) «أضواء البيان» (٤/ ٢٩-٣٠).

(٣) «التفسير الكبير» (٢١/ ٨٤) باختصار.

«يا أبا بكر! إنا قليل» فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ.

وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووطئ أبو بكر وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وجاء بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بني تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة.

فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بالستهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً، أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟ فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك؟ قالت: نعم.

فمضت معها، حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً، فدنت أم جميل، وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم، قال: فإن الله عليّ ألا أذوق طعماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل، وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتا على رسول الله

صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فأكَبَّ عليه رسول الله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقبله، وأكَبَّ عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَقَّةً شديدة^(١).

٤- سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وولاه لله - عز وجل - ورسوله صلى الله عليه وسلم وبراعته من أمِّه التي حاولت أن تصده عن دينه:

قال البغوي: إن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنِثُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التكوير: ٨] وآية [البقرة: ١٥] نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وأمه حمنة بنت أبي سفيان، فقد كان سعد من السابقين الأولين للإسلام، وكان بارًا بأمِّه قالت له أمه: ما هذا الدين الذي أحدثت؟! والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتُغير بذلك أبد الدهر، يقال: يا قاتل أمِّه!

ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب، ولم تستظل، فأصبحت وقد جهدت، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد إليها وقال: يا أمِّه، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني، فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله هذه الآية، وأمره بالبر بوالديه والإحسان إليهما، وعدم طاعتها في الشرك؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق^(٢).

٥- عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول وتبرؤ من أبيه رأس النضاق، وموالاته لله - عز وجل - ورسوله صلى الله عليه وسلم :

عن جابر رضي الله عنه قال: كنا غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «دعوها إنها منتنة» فسمعها عبد الله بن أبي فقال: قد فعلوها، والله لئن

(١) «البداية والنهاية» (٣٠/٣).

(٢) «تفسير البغوي» (١٨٨/٥)، وانظر «أسباب النزول» للواحدي ص[١٩٥] والحديث.

رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزَّ منها الأذلَّ، قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دعه؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»^(١).

قال محمد بن إسحاق: عن عاصم بن عمرو بن قتادة: أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان من أبيه أتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمُرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد عَلِمَتِ الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالديه مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

وذكر عكرمة وغيره: أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة، وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول على باب المدينة، واستلَّ سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك، فقال: مالك ويلك؟! قال: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يسير ساقية^(٢).

فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه فقال الابن: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: أما إذ أذن لك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجُزْ الآن^(٣).

فانظر إلى عمق هذه المعاني الإيمانية في نفوس الصحابة الكرام، فكانوا لا يبالون بأبائهم وأمهاتهم إذا كانوا معاندين لشرع الله، محاربين لله ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إنه الإيمان الصادق الذي جعل حبهم أولاً لله وَعَلَيْهِ السَّلَام، ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونصرتهم لدين الله، والصحابة - كما أسلفنا غير مرة - سبقوا الأمة إلى كل خير،

(١) رواه البخاري (٦٥٢/٨) التفسير، ومسلم (١/) البر، واللفظ له.

(٢) أي يسوق أصحابه أمامه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٥٩).

وتسابقوا في كل برٍّ، إنهم قادة البشرية إلى السعادة الأبدية بعد الأنبياء الكرام، فرضي الله عنهم، وأرضاهم وقد فعل وَعَلَّكُمُ.

٦- سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيد الأوس وتبرؤده من حلفائه بني قريظة وموالاته لله - وَعَلَّكُمُ - ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

كانت بنو قريظة قد غدروا، وخانوا العهد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وتمالأوا مع الأحزاب الكافرة شأن اليهود في كل زمان ومكان، كما قال تعالى: ﴿ أَوْ كَلَّمَا عَاهِدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٠].

وهذه قصة سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع بني قريظة:

تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ... ويرمي سعدًا رجلٌ من المشركين من قريش، يقال له: ابن العرقة بسهم له، فقال له: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله ^(١) فدعا الله سعدٌ فقال: اللهم لا تمنني حتى تقرر عيني من بني قريظة فيخرجون من صياصيمهم ^(٢)، ورجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، وأمر بقبة من آدم فضربت على سعد في المسجد، قالت: فلبس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لامته ^(٣)، وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمر على بني غنم - وهم جيران المسجد -، فقال: «من مرَّ بكم؟» فقالوا: مرَّ بنا دحية الكلبي، وكان دحية تشبه لحيته ووجهه جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، قالت: فأتاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحاصرهم خمسة وعشرين ليلة، فلما اشتد حصارهم، واشتد البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبح فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سعد بن معاذ، فأتي به على حمار عليه إكاف من ليف، قد حمل عليه، وحفَّ به قومه، وقالوا له: يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل النكايه، ومن قد علمت،

(١) هو العرق الذي يغذي الذراع.

(٢) أي: حصونهم.

(٣) اللامة هي: آلة الحرب.

فلم يرجع إليهم شيئاً، ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم، التفت إلى قومه فقال: قد أتى لي ألا يأخذني في الله لومة لائم.

قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه» قال عمر: سيدنا الله، قال: «أنزلوه» فأنزلوه، قال رسول الله ﷺ: «أحكم فيهم» قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله - ﷻ - وحكم رسوله ﷺ» (١).

وقد طمعت بنو قريظة أن يشفع فيهم سعد بن معاذ؛ لأنه كان حليفاً لهم في الجاهلية، كما شفع عبد الله بن أبي بن سلول في بني قينقاع فوهبهم له رسول الله ﷺ، ولكنهم أخطأوا القياس، فعبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق، وولاء المنافقين للكفار، أما سعد بن معاذ فهو سيّد من سادات المؤمنين، اهتز عرش الرحمن لموته ﷺ - قيل: فرحاً بقدوم روحه - فولاؤه لله ﷻ ورسوله ﷺ وللمؤمنين، وهو سيد الأنصار كما قال النبي ﷺ في الحديث السابق: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه» فرضي الله عن الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان.

٧- **كعب بن مالك** رحمته الله **وتبرؤه من ملك غسان، وولاؤه لله ﷻ ورسوله ﷺ**

قد ذكرنا في المواقف الإيمانية في صدق التوبة قصته في تخلفه عن غزوة تبوك وصدقه رسول الله ﷺ، ونزول توبة الله - ﷻ - عليه وعلى صاحبيه، ولكننا نخص في هذا الموضع حادثة خاصة خلال هذه القصة، وهي إرسال ملك غسان إليه في فترة المقاطعة.

(١) قال الهيثمي: في الصحيح ببعضه رواه أحمد، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات، «مجمع الزوائد» (٦/ ١٣٧-١٣٨).

يقول كعب رضي الله عنه: «فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون إليه، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابًا من ملك غَسَّان، فإذا فيه.

أما بعد: فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جَفَاكَ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة، فَالْحَقُّ بنا نواسك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التنوير فسجرت به»^(١).

قال محمد سعيد القحطاني: لقد صدق كعب رضي الله عنه في قوله: «وهذا أيضًا من البلاء»، أجل إنه بلاءٌ عظيم، ولقد كان ولاء كعب رضي الله عنه رغم ما هو فيه من شدة وهجر، ومع دواعي الإغراء والإغواء لله ولدينه ورسوله والمؤمنين، وكان براؤه من ملك غَسَّان واضحًا في حرقة لكتاب ذلك الملك، فانظر إلى هذه العظمة، وهذا الصدق في الولاء، والحب للإسلام والمسلمين، والبعد عن كل ما يصرف عن ذلك من متاع الدنيا ووجاهتها التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة^(٢).

وقال الحافظ رحمته الله: دل صنيع كعب هذا على قوة إيمانه ومحبه لله ولرسوله، وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك، وتحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره، ولا سيما مع أمنه من الملك الذي استدعاه إليه أنه لا يكرهه على فراق دينه، لكن لما احتمل عنده ألا يأمن من الافتتان حسم المادة وأحرق الكتاب، ومنع الجواب، هذا مع كونه من الشعراء الذين طبعت نفوسهم على الرغبة، ولا سيما بعد الاستدعاء والحث على الوصول إلى المقصود من الجاه والمال، ولا سيما والذي استدعاه قريبه ونسيبه، ومع ذلك فغلب عليه دينه، وقوي عنده يقينه، ورجح ما هو فيه من النكد والتعذيب على ما دعي إليه من الراحة والنعيم، حُبًّا في الله ورسوله، كما قال صلى الله عليه وسلم: «وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»^(٣)، وعند ابن عائذ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «الولاء والبراء في الإسلام» [٣٨٤].

(٣) تقدم تخريجه.

أنه شكّا حاله إلى رسول الله ﷺ، وقال: ما زال إعراضك عني حتى رغب في أهل الشرك^(١).

٨- مصعب بن عمير رحمته الله وبراءته من أخيه أبي عزيز:

قال ابن إسحاق: وحدثني نبيه بن وهب أخو بني عبد الدار، أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقمهم بين أصحابه وقال: «استوصوا بالأسارى خيراً».

قال: وكان أبو عزيز بن عمير بن هشام أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى، قال: فقال أبو عزيز: مرّ بي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شدّ يدك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك، قال: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، قال: فاستحي فأردها على أحدهم، فيردها عليّ ما يمسه.

قال ابن هشام: وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث، فلما قال أخوه مصعب بن عمير لأبي اليسر وهو الذي أسره ما قال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك بي؟! فقال له مصعب: إنّه أخي دونك، فسألت أمه عن أغلى ما فدي به قرشي، فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها^(٢).

وقول مصعب رحمته الله لأبي اليسر: إنه أخي دونك؛ حقّ وصدق، فإن الأخوة الإيمانية مقدمة على أخوة الرحم، والعلاقة الدينية مقدمة على علاقة النسب، قال الله ﷻ لنوح عليه السلام في حق ابنه الكافر: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

وما يدل على ذلك كذلك أن الرجل إذا مات وليس له إلا ابن كافر، فإنه لا يرثه، ويعود ماله إلى إخوانه المؤمنين، وهذا يدل على أن معاني الولاء والبراء كانت قوية عند الصحابة رحمهم الله.

(١) «فتح الباري» (٧/٧٢٦).

(٢) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (٣/٥٤) ط. مؤسسة المختار، والكلية الأزهرية.